هل إلى خروج من سبيل

الأخ أحمد الشربيني

تمت إرادة الله العليمة الحكيمة ، القادرة القاهرة في البلوغ بهذا الدين –الذي سمَّاه الإسلام– إلى حيـــث أرادتـــه حكمته ورحمته ، واقتضته حاجة البشرية على اختلاف الزمان والمكان ، وبلَّغ رسوله ﷺ الرسالة ، وأدى الأمانـــة ، وجاهد في الله حق جهاده ، وربَّى أمةً تقلدت مهام النبوة ومسؤولياتها من غير نبوة ، ونهضت بالـــدعوة ، وصـــانت الدين من التحريف وكان لها اليد العليا والوصاية على العالم والحسبة على البشرية في كل زمان ومكان ، وفي كـــل عصرٍ ومصر ﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّـــهِ** ... ﴾ [آل عمران : 110] .

إنني اخط هذه السطور والذكريات المجيدة تتزاحم أمامي في مواكبها المقدسة يوم وحَّد القرآن هذه الأمة وجمـــع شملها ، وقوَّى بنيانيها ، وأزال ما بها من الشقاق ، ووقف بها على أركان المودة والوفاق .. يوم كان المسلم يتنقل في بلادٍ ترفرف عليها راية التوحيد ، ويوم مدت مكة ذراعيها إحداهما إلى قرطبة ، والأخرى إلى دلهي ،ويومهـــا كـــان القرآن قد أزال الحواجز والموانع والفواصل ، كان المسلم في تجواله وترحاله وهبوطه وصعوده من أقـــصى الـــبلاد إلى أقصاها ، لم يكن يستوقفه شرطيٌّ يطلب منه جواز السفر ، أو تأشيرة الدخول والخروج ، لأن هذه الأرض التي كان يسير عليها أرضٌ أشرق فيها نور التوحيد ، وارتفع عليها لواؤه ، ورفرفت فوقها رايته .

الله فـــــوق الخلـــــق فيهـــــا وحـــــده والنـــــاس تحـــــت لوائهـــــا أكفـــــاء

وإني ليحزنني ويؤلمني أن أرى الفرقة ضاربة أطنابها بين شعوب الأمة الإسلاميّة في مشارق الأرض ومغاربهـــا ، في الوقت الذي نسمع فيه تصريحاً لأحد المسؤولين الإسرائيليين يقول فيه : (إنّ لإسرائيل مطالب إقليمية ودينيـــة ، في أجزاء من الأرض التي احتلتها لأن إسرائيل قامت على ثلاثة مقومات :

(1) التوراة (2) الشعب اليهودي (3) أرض الميعاد

فهل آن الأوان للأمة الإسلاميّة أن تُنَفِّض عن نفسها عوامل الشقاق والفرقة ، وتتنبه إلى ما يحيط بها مـــن الخطـــوب المدلهمة ، والمحن القاسية القاتلة الفاجعة ؟!

أما آن لأمة القرآن أن تكرم هذا الكتاب وتستضيء بهديه ؟! أما آن لجيش محمد ﷺ أن يعمل بنـــصيحة قائـــده المعصوم : « **كَفَى بِقَوْمٍ ضَلَالاً أَنْ يَرْغَبُوا عَمَّا جَاءَ بِهِ نَبِيُّهُمْ إِلَى مَا جَاءَ بِهِ نَبِيٌّ غَيْرُ نَبِيِّهِمْ** ... » أخرجه الدارمي .

إذا نحن نقبنا في بطون التاريخ واستقرأنا صفحاته ، رأينا أن هذا الكتاب الكريم كان القوة التي تأخذ بيد المسلمين في جميع الميادين ، وتدفع بهم إلى النصر ، فقد استمسكوا بما جاء فيه ، ولزموه ورتلوا آياته وعملوا بها ، فكـــانوا في سلمهم وحربهم صادقين مع كتاب الله ، كانوا في حربهم -كما وصفهم قادتهم- فرساناً بالنهار ورهباناً بالليل ، لهم دوي بالقرآن كدوي النحل . فكانت قوة الكتاب في صدورهم تبعث الرعب في قلوب أعدائهم ، وكان نور القرآن في أفئدتهم يضيء لهم الطريق إلى مكامن الأعداء ، فيمكنهم من رقابهم ، حتى لقد وقف هِرَقل في مدينة انطاكية يلقي هذا السؤال الحائر على أسماع كبار قواد جيشه يلتمس منهم الجواب الشافي ، بعدما فرغ صبره وغلا مرجل الغيظ في قلبه ، ثم انفجر قائلاً لقواد جيشه : من هؤلاء الذين يحاربونكم : أبشر أم ملائكة ؟ ويخيم الصمت الرهيب على قادة الرومان فيطلب منهم الجواب بصراحة . فيقوم أحدهم فيقول : إنهم بشر يا سيدي ، ولكنـــهم يـــصومون النـــهار ويقومون الليل ، لا يشربون الخمر ، ولا يلعبون الميسر ، نحمل عليهم فيصبرون ويحملون علينا فيصدقون ، أما نحـــن فنحمل عليهم فلا نصدق ، ويحملون علينا فلا نصبر !

فتنفذ هذه الإجابة كالسهم إلى سمع هرقل عظيم الروم وتتغلغل في نفسه فيرفع رأسه قائلاً لقواده -والمرارة تمـــلأ عليه أقطار وجدانه- : (لئن كانوا كما قلتم فلَيَمْلِكُنَّ موضعَ قدمي هاتين) .

ولقد كان ما قاله هرقل أمراً واقعا : فلقد جاء اليوم الذي جعل فيه المسلمون من البحرين الأبيض والأحمر بحيرتين صغيرتين تجريان في أرض الإسلام وترفرف عليها راية القرآن . فما السر في هذا ؟ لقد أخذ الله على نفسه وعداً : ﴿ **إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ** ﴾ [غافر : 51] . وأكد في كتابه هذا الوعـــد فقال : ﴿ ... **وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الروم : 47] .

فو الله لو أكرمنا كتاب الله ما أهاننا أحد ولو لزمناه لرفرفت راية التوحيد خفاقة على كـــل بلـــد ! إذا كانـــت الصهيونية تتبجح ولا تستحي وتصرح ولا تتوارى وتعلن أنها قامت على التوراة ، فأولى بأهل الحق أن يقولـــوا لهـــم بدون مواربة : إنهم قاموا على القرآن ، والقرآن حق !

ألا فلتعلم الأمة المسلمة أن عدوها ماكر خبيث ، فلقد هرب اليهود من الأرض التي ضاقت بهم وضاق بهم أهلها إلى فلسطين سراً وعلى حدِّ قول أحد دعاتهم وهو بلنسكر : (مشياً على أطراف الأصابع) وأقاموا هناك وتعايشوا في سلام في بادئ الأمر وعضوا على الأرض التي استولوا عليها بالنواجذ وجعلوا لها أسواراً ولكنها لم تكن عاليـــة فلـــم تلفت الأنظار ثم بعد أن تكاثر عددهم واتسعت الأرض التي يملكونها بحثوا عن دولة كبرى تساندهم في الحصول على حقوقهم كما يدَّعون ؟! ولقد اختاروا لهم اسم (إسرائيل) : اسم ديني يجمع شتات المتفرقين من القارات الخمس ، و لم يسموها (مملكة بن جوريون) أو دولة (وايزمان) .

لقد أحس اليهود أنه لا وطن لهم إلاّ هذا الكتاب (التوراة) والعقيدة التي يجتمعون حولها هي : (إنّ الدين الذي أبقى على الآباء والأجداد هو الذي يُبقي على الأبناء والأحفاد) !! عرف اليهود قيمة الدين كقطب شديد الجذب . وأحب أن أسجل في هذا المكان محادثة دارت بين أديب أمريكي وبين بن جوريون . سأل بن جوريون الأديب الأمريكي (هرمان ووك) قائلاً : كيف يمكن لليهود أن يقاوموا الفناء في العالم كله ؟ فأجاب . عن طريق الدين . فقال بن جوريون : هذا هو الطريق الوحيد . ولقد يزداد عجبك وتشتد دهشتك -أخي المسلم- إذا ما علمت أن الطفل في إسرائيل في الثامنة من عمره يتعلم العبرية وفي الثانية عشر يقرأ التوراة بالعبرية ، فإذا بلغ أربعة عشر عاماً حفظ الحكم والأمثال من التلمود .. وأذكر على سبيل المثال لا الحصر جملتين من هذا الكتاب المقدس لديهم ؛ يقول واضعو الكتاب : (من العدل أن يقتل اليهودي بيديه كل كافر(*) لأن من يسفك دم الكافر يقدم قرباناً لله) ، وأيضاً : (سلّط الله اليهود على أموال باقي الأمم ودمائهم) . فإذا كان اليهود يحاربوننا بعقيدة ، وأحد قوانين الميكانيكا يقول : (لكل فعلٍ رد فعلٍ مساوٍ له في المقدار ومضاد له في الاتجاه ، فإن حرب العقيدة لا تقابل إلاّ بمثلها أي بحرب عقائدية) ..

إذن ما المخرج ؟ كتاب الله ، كما أخبر رسول الله ﷺ : « **أتاني جبريل فقال : يا محمد إنّ أمتك مختلفة بعدك . قال : فقلت : فما المخرج يا جبريل ؟ قال : كتاب الله ..** » مسند البزار .

نعم .. قلناها ونقولها وسنقولها : كتاب الله هو المخرج وهو الحل الوحيد لأوضاعنا ولهواننا ولضعفنا إذا أردنا نبني كما كان يبني أوائلنا ونفعل مثلما فعلوا .. ﴿ ... **وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ [الحج : 40] .

(*) المقصود بالكافر هنا : غير اليهودي فهو في نظرهم كافر .